الفصل الثانى

الطفولة بين التعليم والأمية
الحقوق ، المؤثرات ، الواقع

تمهيد :

لن ينسى التاريخ فضل شعبنا العظيم على الدنيا كلها ، حين سجل لها أول خطوة فى سبيل تقدم العقل البشرى ، بل أول محاولة للاستفادة من نور العقل البشرى ، ويعد شعبنا هذا أول من اهتدى إلى الكتابة التى سماها الإغريق «الهيروغليفى» أى النقش المقدس ، وكان تسجيل الفكر بالكتابة فتحًا مبينًا فى ميدان الحضارات الإنسانية ، وكان هذا الفتح أهم بكثير من المعارك جميعها التى خاضها الإنسان فى سبيل تنظيم الحياة وتطورها وتقدمها ؛ فبالكتابة وضعت الدساتير المنظمة للحياة ، وبالكتابة أفادت البشرية من تنمية مداركها واستغلالها ، وبالكتابة استعانت الإنسانية على نشر المعرفة وجمع التجارب والخبرة ، وتخليد الثقافات والمعارف والعلوم الرفيعة والآداب العالية .

ترى فى ضوء ذلك ، هل كان لتربية النشء فى مصر القديمة أصوله ونظمه ؟ لعل الإجابة تكاد تكون حاسمة ، فالأصول التربوية

لم تكن ذات طابع نظامى وتشريعى أو عامة على سائر طوائف الشعب ، لكن تلك الأصول التربوية وجدت فى البيئة الفرعونية وتعامل معها الأطفال من روافد عديدة ، أو وسائط تربوية وثقافية متنوعة تمثلت فى «الأبوة الروحية» ، و «التربية الأسرية» و «المدرسة» وغيرها من الوسائط الدينية ، إن التربية المصرية القديمة للطفل «قد سلكت فى مجملها مسلكًا وسطًا لما استهدفته من غايات ، لآثرت سبيلاً وسطًا بين الإشراف المطلق على الناشىء وبين إطلاق الحرية له ، ووثقت بتجارب الأسرة وتوجيهاتها ، وعمل الأب الحكيم فيها بدوره ، وسلكت سبيلاً وسطًا كذلك بين المادية الخالصة ، والروحية الخالصة واستهدفت أيضًا وضع الناشىء على الطريق السوى ، من أجل نفسه ومن أجل الناس ، وجعلت التربية فى مصر القديمة سبيل سعادة الناشىء فى تمكنه من الكتابة أى «التعلم» وتعمدت أن ترغبه فيه»[٧].

تعليم الطفل وتربيته فى مصر القديمة :

نشأت التربية فى مصر الفرعونية فى أول أمرها فى الدوائر الأسرية ، ففى المنزل المصرى القديم تمحورت أولى أدوار التربية للطفل ، حيث كانت تقوم الأم ومن بعدها الأب على تربية طفلهما ، كما نستطيع أن نستنتج أن الصبية قد كانوا يتعلمون القراءة والكتابة أحيانا على أيدى آبائهم قبل دخول المدرسة ، ونستخلص تلك الحقيقة من سيرة (آنى) الذى يقول إنه ذهب إلى المدرسة (غالبًا المدرسة ملحقة بالمعابد أو القصور) ، بعد أن تعلم الكتابة فى دار أبيه ، على هذا الأساس نشأت

الأبوة والبنوة الروحية بين المعلم والتلميذ ، فكان الكبار من أهل التجربة والمعرفة يتخذون من غير أبناء الصلب تلاميذ يتعهدونهم بالتربية والرعاية ، وكان البيت ميدانًا من ميادين التربية المقصودة ، تمارس فيه سليمه قويمه ، يتعلم الناشىء خلاله قواعد السلوك والأخلاق والمهارات ، وليس أدل على مدى اهتمام المصريين بالتربية الأسرية من شهادة المؤرخين الغرباء بذلك ، فهذا «ديودور» يقول : إن مما يميز حياة المصريين أن الطفل عندهم يلقى حظه الكامل من التربية والرعاية ، ويقول «استرابون» : من التقاليد التى كان يرعاها المصريون بوجه خاص ، الحرص على تهذيب كل من يولد لهم من الأطفال»[8].

إذًا فالأساس التربوى فى تعليم الأطفال فى مصر القديمة ، اعتمد فى المقام الأول على الأبوة الروحية ، والتربية الأسرية المنزلية ثم المدرسة ، والأبوة الروحية تعنى توفر فئة من المربين الحكماء لتعليم الناشئين السلوك والأخلاق والوصايا ، ومهارات فن الحياة وأشهر هؤلاء الرواد : «ايمحتب» و «كاجمنى» و «ددف حور» و «كار» و «حور خوف» وغيرهم من قدامى المربين فى الأسرات المصرية القديمة المتلاحقة . ومن الأقوال التى وصلتنا مدونة فى هذا الصدد ، قول أحد الحكماء إذ يوصى تلميذه :

«طالع هذه الفصول .

إنها لتتحدث ، وإنها لتعلم

إنها تصير الجاهل عالما

وإنه ليتطهر بها
املأ لها نفسك وأقرها فى صدرك
لتصبح رجلاً يقدر على شرحها
فتشرحها كمعلم» .

ومنه أيضا من أقوالهم ما يفيد نبذ الأمية وكراهية الجهل ، والإشارة إلى أهمية اكتساب العلم والتعلم :

«لا تكن كالأحمق بغير لب كمن لم يتعلم ، إن الأحمق من عدم العلم ، ومن لم يعلمه أبوه كان تمثالاً من حجر» . «سطر بيديك ، واقرأ بلسانك ، وافعل ما آمرك به ، حتى لا يضيق صدرى بتعليمك ، ولسوف تجد فى ثمرات التعليم ما هو أغنى من حياة موفورة الخبز والجعة»(٩).

ومن دواعى فخرنا بتراث الأقدمين ، أنهم قدموا للإنسانية أول كتاب مدرسى يضم من القواعد والأصول ما ينبغى للمبتدىء الإلمام به من أصول المعرفة ، فيرى د. أحمد بدوى أن كتاب «كميت» ومعناها الكامل ، هو أول مؤلف من نوعه عرفه التاريخ الإنسانى فى مجاله «وظاهر ما تبقى من متنه أن أسلوبه يرجع إلى أواخر عهد الأسرة الحادية عشرة وأوائل أيام الأسرة الثانية عشرة ، وأنه مجموعة من الرسائل ينبغى للطالب المبتدئ أن يسلكها ليسلك بها السبيل إلى المعرفة»(١٠).

إن التأليف للطفل أوضع البرنامج الدراسى لتعليمه ريادة حضارية ، تحسب للدولة المصرية القديمة ، وإذا كانت مصر الفرعونية قد سبقت العالم أجمع فى هذا المضمار ، فإن ما يعيب التربية يومئذ هو عدم الالتفات إلى أهمية اتساع رقعة التعليم لتشمل جميع طوائف الناس ، وليس بين أيدينا من تراث الدولة المصرية القديمة ما يشير إلى تكافؤ الفرص فى التعليم ، فلم تكن أبواب المدرسة مفتوحة أمام كافة أبناء الشعب وإنما كان التعليم عامة مقصورًا على أبناء أمراء الأقاليم وكبار موظفى الدولة ، وكانت نظرة المصرى القديم للتعليم عبارة عن تحسين لحالة الفرد الاجتماعية ، واقترانه لمكانة فى الدولة ، أو امتهانه لوظيفة «الكاتب» بمعناها الواسع الجامع لكل المعارف والآداب ، كما أن المربين كانوا ينصحون تلاميذهم بأن يجتهدوا ليصبحوا «كتابًا» .

وفى الدولة المصرية الوسطى ، لم يكن مؤدب الأطفال أو معلمهم من الحكماء وحسب ، وإنما كان من الأدباء كذلك ، فكان لشعرهم ونثرهم الأثر الواضح فى تعليم النشء وتثقيفه ، ومنهم «نفرو هو» ونظراؤه ، وليس معنى هذا أن الوصايا الحكيمة قد انقطع دورها بسبب إنشاء المدارس حول المعابد ، أو القصور فى تلك العصور ، والتى كانت تلقن الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والعد والحساب وبعض أصول الدين ، وليس من شك أن نصائح الآباء والحكماء بقيت فى البيئة التربوية المصرية القديمة ، واستمرت تسير فى خط مواز للمدرسة والتربية الأسرية ، ومنه وصية الحكيم «آنى» لابنه :

ولا تنسى أمك التى حملتك وزودتك بكل شىء ، لقد أخذتك إلى المدرسة إلى حيث تتعلم الكتابة ، وانتظرتك هناك كل يوم ، ومعها الطعام والشراب» .

ومنه أيضا وصية «خيتى» لابنه دواوف وهو يتجه به إلى المدرسة :

«أحبب الكتب كحبك أمك ، فليس فى الحياة ما هو أغلى منها ، ولتضع قلبك وراء الكتب» .

أما فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية فقد أفاد المجتمع المصرى القديم من تراث الدولة القديمة والدولة الوسطى ، ويرى المؤرخون أن تعليم الأطفال ، ازدهر ، وتوسع ليشمل طوائف اجتماعية غير طبقة الحكام وكبار رجال الدولة ، فقد أنشأت المدارس الجديدة ، وقد صاحب إنشاء تلك المدارس ظهور «القراطيس المدرسية» التى تحوى النصائح ومبادىء تعلم القراءة والكتابة وألوان التربية السلوكية الأخلاقية ، ويكشف د. أحمد بدوى عن المظاهر التى اقترنت بانتشار التعليم فيذكر : «اتسع استخدام المواد المساعدة للتعلم ، واجتمع بين أيدينا اللخاف وقطع الخزف وألواح الخشب ، ثم ذلك القدر الضخم من قراطيس البردى ، وكلها من مخلفات المدارس ودور التعليم على اختلاف أنواعها ، ويلاحظ أن تلك المخلفات قسمة بين فريقين من رواد المدارس ، فالمبتدئون منهم كانوا يكتبون على المواد الرخيصة ، فى حين كان المتقدمون منهم يكتبون على قراطيس جديدة من البردى»[١١].

وفى الحقيقة أن تعليم الطفل وتربيته فى الحضارة المصرية القديمة ، لم يستهدف فى معظم غاياته إلا بلوغ الصبى منزلة أدبية مقترنة بوظيفة مادية وهى مهنة «الكاتب» التى تناثرت مقولاتها فى سائر العصور القديمة ، ومنه قول أحد الحكماء : «وطن نفسك على أن تكون كاتبًا حتى تستطيع أن تدير العالم ، اعمل وصر كاتبًا» . ومهما يكن من شىء فإن نظرة المصرى القديم لتعليم الطفل وتربيته كانت نظرة حضارية تمثل الظروف التاريخية للفرد والمجتمع خير تمثيل ، لكنها لم تخل من توجهات ثاقبة تلجأ إليها فلسفات التربية المعاصرة من مثل دور الأسرة والمجتمع ، وفى مؤسسات طفل ما قبل المدرسة ، ومن المنطقى ألا تقع أيدينا على أية مؤشرات تفيد حجم الأمية عند أطفال مصر القديمة أو معدلاتها ، لأسباب أوضحناها آنفا ، وأهمها المتعلق بعدم وجود نظام إجبارى أو إلزامى لتعليم كافة أبناء الشعب يومئذ.

تعليم الطفل وتربيته فى ظل الحضارة العربية الإسلامية :

لقى العلم أو التعلم فى ظل الحضارة الإسلامية اهتمامًا أساسيًا من الإنسان ، فلقد جاء الإسلام ليخرج الإنسانية من ظلمة الجاهلية إلى نور العلم ، وليبلغ بالإنسان مكانة سامية ، ومن المنطقى أن يجعل الإسلام «العلم» فريضة وضرورة ، بل هو فرض كفاية ، وبنص حديث الرسول ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم» . وليس العلم الدينى وحسب ، وإنما سائر العلوم والمعارف والصنائع ، (وفى الحديث النبوى

الشريف ، يقول الرسول ﷺ : «تعلموا العلم ، وعلموه الناس ، وتعلموا الفرائض ، وعلموها الناس ، وتعلموا القرآن وعلموه الناس» . فالعلم ، بنظر الإسلام ، ليس القرآن وحده ، وليس علوم الوحى والشريعة فقط ، بل إنه شامل لكل ما يحيى الجسد والروح ، وينهض بعمارة الكون ويرقى بروح الإنسان إنه الحياة ، كل الحياة)[١٢].

هذا التكريم الإلهى للإنسان ليتعلم ويترقى فى مدارج العلم ، هدفه الإنسان ووسيلته كذلك بما أنعم الله به على الإنسان بنعمة العقل للتدبر والتفكر والتعلم .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ،وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ ،ووضع الإسلام الإنسان العالم فى درجة رفيعة.. قال عز من قائل ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ . وقد أوضحت سيرة النبى ﷺ وأقوال الصحابة درجات العلم وأهمية التعليم وسيلة لعمارة الأرض ، وغاية لبناء الإنسان وإيمانه المتكامل ، ومن هنا تأتى أهمية مضامن المأثورات الإسلامية الباقية ، من مثل قول الصحابى عبد الله بن مسعود «أغد عالمًا ، أو متعلمًا ، أو مستمعًا ، ولا تكن الرابع فتهلك» أيضا يقول الصحابى خالد بن معدان «الناس عالم ، ومتعلم ، وما بين ذلك همج لا خير فيه» .

إذًا فالعلم فريضة .

والعلم فضيلة .

والجهل هلاك وضعف .

ونعود لنتساءل ، هل للطفل نصيب فيما ذكرناه ؟، أجل حقق الإسلام الرعاية المتساوية للإنسان الفرد ذكرًا أو أنثى ، رجلاً أو امرأة ، ولدًا أو بنتًا ، - والأطفال بنوع خاص - أكد الإسلام على أهمية رعايتهم الكاملة قبل زواج الوالدين ومنذ المهد إلى سن الفتوة .

وللطفل فى التراث مؤلفات متنوعة فى التعليم والحقوق والطب والأدب وغيرها وبخاصة مؤلفات رجل الفلسفة أو التربية الأوائل أمثال : الراغب ، وابن مسكويه وابن سينا ، والكندى ، والفارابى ، والغزالى ، وابن خلدون وغيرهم : ونورد هنا بعض مقولاتهم الصائبة تجاه تربية الطفل وتعليمه :

يقول الراغب «ويجب أن يصان (الطفل) عن مجالسة الأردياء فإنه فى حال صباه كالشمع يتشكل بكل شكل يشكل به» ، ومنه مقولة ابن مسكويه فى كتاب تهذيب الأخلاق : «إن نفس الصبى ساذجة لم تنتقش بعد بصوره ، فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها» ، وأوقف ابن المقفع كتابه الأدب الوجيز (الأدب الصغير) للكتابة للطفل : تعليمه وتأديبه ، وقد قصره على الآداب والمواعظ والأخلاق والنصائح .

وقد توسع الغزالى من بين فلاسفة الإسلام ومفكريه الرواد - فى مجال أدبيات الطفولة من منظور إسلامى ، ورأى الغزالى أن كل مولود

يولد معتدلاً صحيح الفطرة ثم يقبل التأثر بمن حوله ، ويسترشد بالحديث النبوى «كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» .

ويكشف الغزالى عن أوجه النقص الطبيعى فى الناشىء فيذكر ، «وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية ، وتهذيب الأخلاق ، والتغذية بالعلم»(١٣).

أما دور الأسرة فى تربية الطفل ، فيؤكد الغزالى المسئولية الكبرى التى يتحملها الوالدان ، وكل من يوكل إليه أمر الطفل ، إذ يقول «الصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل إلا كل ما يمال به إليه ، فإن عُوِّد الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه، وكل معلم له ومؤدب، وإن عُوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والوالى له»(١٤).

والتعليم للفرد إرشاد وتهذيب ، ومنفعة ورقى ، فيما كان يرى الغزالى ونظراؤه ، فإذا كان العلم أفضل الأعمال ، فإن تعلمه طلب للأفضل ، وتعليمه إفادة للأفضل ، فى ضوء ذلك تنوعت آراء علماء اللغة والأدب والفلسفة الإسلامية والفقهاء ، وجاء التنويع لمصلحة بناء الفرد وتوسيع مداركه ، والحث على تعليمه ، وتشكيل عقليته ووجدانه .

وليس من شك أن دور الحضارة العربية الإسلامية فى الإسهام العلمى منذ فجر الإسلام ، وإلى نهاية الدولة الإسلامية فى الأندلس ، يعد أهم منجزات العقل البشرى الإنسانى عبر تاريخه الطويل ، وكان الأساس التربوى هو القاعدة التى بنى فوقها كل إنجاز حضارى فى العلوم والفنون والآداب ، والعصور الإسلامية المتتابعة تنافست فى الإضافة والفعل الحضاريين ، فكانت المراكز الثقافية فى العواصم ، والمدن فى سائر الأمصار ، وحمل المسجد رسالته الجامعة فى الدعوة والتعليم ، اهتم الخلفاء والولاة ببناء دور العلم والمدارس ، وظهرت جهود العلماء فى التدوين والتعليم ، ونشأت طبقة من المؤدبين لتربية وتعليم ناشئة الأمة ، وقد اضطلع هؤلاء ، وأولئك بمهمة التشكيل الوجدانى والمعرفى للأطفال عن طريق تأديبهم بالمعنى العام للأدب ، الفنون الأدبية والحكايات والحكم والوصايا من ناحية ، ومبادىء القراءة والكتابة والحساب من ناحية أخرى ، وقد ظلت هذه الوسائل الفنية التربوية تحمل فى مضامينها الأهداف الوظيفية فى تعليم الأطفال وتربيتهم .

إننا لو أعدنا قراءة آراء عبد الرحمن بن خلدون حول : العلم والتعليم والتعلم ، سنجد إلى أى مدى اهتم العقل العربى ببناء شخصية الإنسان من زمن الطفولة إلى آخر مدارج العلم ، ويستدل فى مقدمته بالمأثورات الباقية عن الحضارة العربية الإسلامية إلى عصره .

وقد علل الأستاذ أحمد أمين فى كتابه «ضحى الإسلام» صدق النظرة الشمولية فى الحضارة الإسلامية لتوجيه الحس البشرى بالتركيز على أصول التنشئة ، وفى الأخذ بأسبابها - علل ذلك - بما أورده من الحديث النبوى «.. يقول النبى ﷺ : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر ، كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان فى النطق، وأحسنها مسموعًا أبينها أبانة عما فى النفس ، فإذا امتازت قريش بالفصاحة،فقد امتازت بنو سعد بسلامة اللغة ، فجمع النبى ﷺ الأمرين» ، هذا عن أثر البيئة والنشأة فى التكوين اللغوى ، من خلال الإشارة إلى القدوة والمثل الأعلى وفى الفصاحة ، وفى صحة الألفاظ التى لقنها ﷺ منذ نشأته الأولى بالسماع .

ولم تنفصل النظرة التربوية فى تعليم الطفل أو تهذيبه عن الغايات الأخلاقية فى ظل الحضارة الإسلامية ، لأن جذور التربية أقيمت على دعائم قيمة حث عليها الدين علمًا وعملاً ، فالأطفال منذ إدراكهم يتعلمون مبادىء اللغة والكتابة والقراءة والحساب فى خط مساو لتعلمهم القرآن ، وما حسن من الأدب والشعر . يقول الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئًا
فمطلبها - كهلا - عليه شديد

ولقن الطفل العربى العديد من المعارف والآداب ، واكتسب عبر مئات السنين لغته العربية وآدابها ؛ فى مجالى المنظوم والمنثور ، وكان

تأثير الأنواع الأدبية فى نفوس الصغار ، وتوسيع مداركهم من أهم العوامل التى شكلت شخصياتهم .

وعرف النظام التربوى العربى الأستاذ (الشيخ) وتلميذه ، أو العالم والمتعلم ، وأثمر اللقاء بينهما عن تواصل الدور الحضارى للأمة علمًا وتعليمًا ، ولم يغفل رجال الحضارة العربية الإسلامية أهمية المنظومات الشعرية التربوية للطفل ، فى : الألغاز التعليمية ، والأحاجى ، والطرائف ، والمعلومات ، والأخبار والنوادر وغيرها مما يشكل ثقافة الناشئين ، أيضًا أحس العربى - منذ وقت مبكر - بأهمية الرياضة البدنية والنفسية أو الهوايات لدى الأطفال نشجعها ، وحث على تعلمها من خلال المؤدبين ، أو فى دور العلم وخارجها ، ومنه ما رواه الجاحظ : (علموا أولادكم العوم والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وما حسن من الشعر) ولحث الطفل على إتقان ملكة من الملكات وصنعة من الصناعات قال الملهب لبنيه : لا يقعدن أحدكم السوق ، فإن كنتم فاعلين فالى زراد أو سراج أو وراق» .

وفى اطمئنان نقرر : أن الاتجاه الدينى المتكامل هو الفلسفة الإسلامية التى خاطبت عقل الأطفال ووجدانه ، ونعنى بالاتجاه الدينى المتكامل المزاوجة بين مبادىء الدين ومبادىء العلم فى المنهج التعليمى للطفل ، أجل لم يكن هناك منهجًا محددًا ثابتًا ، وإنما جاءت معاييره متكاملة دونما اصطلاح عليها ، وقد اهتدى رجال الاتجاه الدينى المتكامل - باعتبار أن الدين (أحاط بكل شىء علمًا) - بأقوال الرسول ﷺ

وأصحابه ، والخلفاء والأمراء وعلماء الحديث واللغة والأدب ، وتتلخص رؤية أصحاب هذا الاتجاه بالبدء فى تعليم الطفل وتربيته عن طريق تحفيظه القرآن – وبخاصة السور القصار منه – ثم يتعلم مبادىء اللغة وما حسن من المثل والشعر ومبادىء الحساب ، يقول ابن سينا :

(.. فإن اشتدت مفاصل الصبى واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعى سمعه ، أخذ يتعلم القرآن ، وصورت له حروف الهجاء ، ولقن معالم الدين ، كما ينبغى أن يروى للصبى الرجز ثم القصيد ، فإن روايته أسهل وحفظه أمكن ، لأن بيوته أقصر ووزنه أخف)[١٥]، ومنه أيضا قول ابن بسام :

(.. وأول ما ينبغى للمؤدب أن يعلم الصبى : السور القصار من القرآن بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل ، ويدرجه بعد ذلك لمعرفة عقائد السنين ، ثم أصول الحساب) »[١٦].

ولنا أن نضيف بعد ذلك نتيجة مؤداها أن الاهتمام بالطفل فى ظل الحضارة الإسلامية كان ثمرة لازدهار تلك الحضارة ، واتساع دائرتها الإنسانية انطلاقًا من منظور إسلامى : يعلم ويتعلم ، ويترجم ويضيف ، ويسهم ويقرن العلم بالعمل ، قيمة ومعرفة ، ولا عجب إذا ما ألفينا التراث الإسلامى (إلى القرن الحادى عشر الميلادى) يقف بمنجزاته فى العلم والأدب والفن يهدى الحضارات العالمية – وقتذاك – علامات طريق النهضة ، وبطبيعة الحال لم تتوفر لدينا أى إحصائيات عن معدلات

أمية الأطفال ، لكن ازدهار حركة التعليم والترجمة والتأليف والتدوين فى سائر بلدان العالم الإسلامى ، يدلنا على أهمية الدور الذى لعبه العلم والعلماء ، وفى إثراء القاعدة العريضة من المتعلمين فى كل الأمصار ، وليس غريبًا أن يكتب العربى (فى القرن الهجرى الأول) رسالة الحقوق ، حقوق الإنسان عامة والطفل بخاصة ، إن نظرة الحضارة العربية الإسلامية «لحقوق الطفل» كتبها على بن الحسن قبل (الإعلان العالمى المعاصر لحقوق الطفل بنحو ألف وخمسمائة عام) ، حقه فى الاسم والتربية والتعليم والثقافة والأدب والرعاية – بأكثر وأفضل – ما أقرته الأمم المتحدة للأطفال ؟!.

حقوق الطفل :

يتوهم البعض أن الحضارة المادية الحاكمة لعالم اليوم هى أول من تنبهت إلى الطفولة أو الإنسان ، فأقرت له فى الدساتير الحديثة ، والقوانين المعاصرة جملة من الحقوق الإنسانية التى حرم منها عبر التاريخ الحديث والمعاصر .

لقد أورد القرآن الكريم كافة الحقوق للإنسان ، والإنسانية ، فى سياق موازٍ لواجباته فى الحياة ، وحظى الطفل بالاهتمام المتكامل فى ظل الحضارة الإسلامية ، فأبان القرآن عن النزعة الإنسانية الفطرية عند البشر ، الرامية إلى الانجاب بغية حفظ النوع وامتداد الذرية الصالحة ، قال تعالى :

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِين ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١ الصافات .

﴿رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى)﴾ الآية : ٤٠ سورة إبراهيم .

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ الآية : ٤٦ الكهف .

وقد عنى الإسلام بالطفل فى مرحلته الجنينية ، فأعفى المرأة الحامل من فرض الصيام إذا كان حظرًا على صحتها وصحة الجنين .

وعندما يكون الطفل وليدًا يعطيه الإسلام الحق فى اختيار الوالدين للاسم الحسن ، واسم الطفل هو شارته وسمته بين الناس ، والاسم الحسن يناسب الشيء الحسن ، أو كما يقال «اسم على مسمى» وكثيرًا ما غير الرسول ﷺ الاسم القبيح بالاسم الحسن ، لكن حرية اختيار اسم الوليد الطفل تعود فى دقة اختيار الأسرة لاسم الطفل الحسن ، مبنى ومعنى ، ومنه ما ورد في كتاب الأدب من صحيح البخارى ما يرويه ابن المسيب «عن أبيه أن أباه جاء إلى النبى ﷺ فقال :

ما اسمك ؟ قال حزن .

قال : أنت سهل . قال لا أغير اسما سمانيه أبى .

قال ابن المسيب : فما زالت الحزونة فينا بعد» .

والتفت الإسلام إلى الأدب التربوى قبل أن يعقل الطفل ويدرك ، فحفظ تراث الحضانة الإسلامية الأغانى الهادفة الرقيقة ، والمنظومات القصيرة لإشباع الحاجة الإيقاعية عند الطفل منذ زمن مبكر (أغانى المهد والترقيص والترنيمات القصيرة) ، وقد أوضحت سور القرآن الكريم غير مرة كيفية سد احتياجات الطفل من الغذاء والكساء والتعلم . «الآية : ٢٢٣ سورة البقرة» . و «الآية : ٦ من سورة الطلاق» «الآيات: ١ - ٥ سورة العلق» ، وغيرها ، ومن البديهى أن الأدب النبوى واجتهادات الصحابة والفقهاء ، تناولت بالتفصيل مسائل اختيار الأم ، والاسم ، والرضاع ، والحاضنة والمربية ، والمرضعة ، والإنفاق ، والكساء ، وآداب العلم والتعليم ، لم ينس رجال الحضارة الإسلامية كذلك حق الطفل فى اللعب واللباس والنظافة ، ومنه قول الإمام الغزالى فى باب رياضة الصبيان من كتابه القيم الإحياء «ينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكُتَّاب أن يلعب فيذكر فإن منع الصبى من اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائمًا يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا» ، وفى الآثار النبوية أيضا : «من كان له صبى فليستصب» أى يتواضع ويتصاغر وينزل إلى مستوى الصبى ، وإنه قال للحسن والحسين : «إنكم لتجبنون ، وإنكم لتبخلون ، وإنكم لمن ريحان الله» أى تجعلون أهلكم ذوى جبن وذوى بخل من أجلكم» ، وقد تمتد حقوق الطفل لتشمل زواجه عندما يشب بالغًا رجلاً ، قال ﷺ «من حق الولد على والده

ثلاثة ؛ يحسن إسمه ، ويعلمه الكتابة ، ويزوجه إذا بلغ» . ومن طرائف أخبار السيرة النبوية العطرة طبيعة العلاقة الحميمة الحانية بين الرسول ﷺ والحسن والحسين رضى الله عنهما ، وكان إذا أقبلا قام لهما واستقبلهما وحملهما على كتفيه ، وقال : نعم المطى مطيكما ، ونعم الراكبان أنتما .

أيضا التفت الأوائل إلى أهمية صيانة حقوق اليتامى من الأطفال حتى يبلغوا سن الرشد ، قال تعالى : ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُم رُشْدًا فَادْفَعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية ٦ سورة النساء ، وكذلك حق الأمن والايواء ، والسكن والطعام فى تكافل اجتماعى غير مسبوق ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الآيات ٩ – ١١ الضحى ، وحق رعاية أموال الطفل اليتيم أحد الحقوق الرائدة للطفل المسلم ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ الآية ٣٤ الإسراء.

وحق الطفل عامة ، واليتيم الطفل خاصة فى الغذاء ، أحد الحقوق التى كفلها الإسلام قال تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ الآية ٨ الإنسان . حتى الأطفال اللقطاء أو الشواذ أفرد لهم الإسلام ، ومن ذلك أن عمر رضى الله عنه «كان إذا أتى باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقًا يأخذه وليه كل شهر وكان

يوصى بهم خيرًا ، ويجعل رضاءهم ونفقتهم فى بيت المال» ، لقد تنوعت حقوق الطفل فى الإسلام لتشمل مراحل نموه المختلفة صحة وتربية وتعليمًا وترويحًا .

إن دعاء إبراهيم عليه السلام من سورة البقرة ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ الآية ٥ ، هذا الدعاء على لسان أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام يحل حق الطفل المسلم فى ميراث الجنس تتمة لحقه فى اختيار الاسم .

ولقد استجاب الله عز وجل لدعاء إبراهيم حين قال : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الآية ١٢٩ سورة البقرة ، فكان حق الأمة فى التعليم والعلم والتعلم ، وكان النبى ﷺ ينتقل بالأمة من الجهل إلى نور الإسلام ، نور العلم فى قول الله عز وجل : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ الآية ١٦٤ سورة آل عمران .

فى ضوء ما عرضناه من ميراثنا الروحى والمادى ، نقول فى اطمئنان إننا أمة منوط بها حمل مشاعل الريادة بالنظر والعمل ، إن المعاهدات، والاتفاقيات، والمواثيق العالمية لحقوق الإنسان ، أو الطفل فى الزمن

الحاضر ، لا تضيف لحقوق الطفل أية حقوق جديدة ، فهى ليست إلا تشريعات أو أطروحات قانونية لتنبه المجتمع الدولى لرعاية الطفل (الإنسان) وتربيته ، ولاضير من الاسترشاد بها ، والقياس عليها وتنفيذ برامجها ، وتحقيق غاياتها ، التى نادى بها الإسلام منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام .

لقد تضمنت أحاديث الرسول ﷺ حقوق الطفل ورعايته ، واسترشد بها الصحابة والتابعون ، فحق الطفل فى الطعام (الغذاء) نزلت به الآية الكريمة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ الآية ، فى مناسبة تفقد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأسرة تشكو الجوع الذى يهدد أطفالها ، وفى جوانب أخرى أبانت أحاديث الرسول ﷺ عن حقوق الطفل منذ ولادته مرورًا بتسميته والاحتفال به ، ثم رضاعته ، وتأديبه ، وتعليمه ، والبربه ، والحنو عليه ، وانتهاء ، بتأكيد العقاب عندما يعقل (يدرك) ويخطىء ، وهو عقاب رفيق متدرج يبنى ولا يهدم.

حقوق الطفل العالمية المعاصرة :

إن القراءة المتأنية (للبنود) التالية يدلنا على كل حال - كيف التفتت الحضارة المادية إلى الطفل «أبو الرجل» فى محاولة لبناء الإنسان الجديد ، بعد أن ذاقت الإنسانية المعاصرة ويلات الحروب والفقر والجهل والمرض والجوع ، وفيما يلى نورد نص الإعلان العالمى لحقوق الطفل الصادر فى العشرين من نوفمبر عام ١٩٥٩ والذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة تقول المواد العشر :

إعلان حقوق الطفل

١ – يتمتع الطفل بكل الحقوق المذكورة فى هذا الإعلان ، ويمنح هذه الحقوق كل الأطفال دون أى استثناء ، أو تفرقة أو تمييز بسبب الجنس أو اللون أو النوع أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو غيره ، أو الأصل القومى أو الاجتماعى أو الملكية أو المولد أو أية حالة أخرى له أو لأسرته .

٢ – يتمتع الطفل بحماية خاصة ، ويمنح عن طريق القانون وغيره من الوسائل الفرص والتسهيلات التى تتيح له أن ينمو جسميًا وعقيًا وروحيًا واجتماعيًا نموًا صحيحًا وسويًا ، وفى ظل الحرية والكرامة ، ويراعى عند سن القوانين اللازمة لهذا الغرض أن يكون لأفضل مصالح الطفل أكبر اعتبار .

٣ – للطفل عند مولده الحق فى اسم وجنسية .

٤ – يتمتع الطفل بمزايا الأمن الاجتماعى ، وله الحق فى أن ينمو ويشب فى صحة جيدة ، ويجب من أجل هذا أن يحاط هو وأمه برعاية وحماية خاصتين ، بما فى

ذلك الرعاية المناسبة قبل الولادة وبعدها ، وللطفل الحق فيما يناسبه من غذتء ومسكن وتسلية وخدمات طبية .

٥ – يعطى الطفل المعوق جسميًا أو عقيًا أو اجتماعيًا المعالجة والتربية والرعاية اللازمة تبعا لحالته الخاصة .

٦ – يحتاج الطفل من أجل نمو شخصيته، نموًا كاملاً متناسقًا ،إلى التفهم ويجب ، كلما أمكن ، أن ينمو فى رعاية وتحت مسئولية أبويه ، وعلى أية حال ، فى جو من العطف والأمن المعنوى والمادى ، ولا يجوز ، فيما عدا الحالات الاستثنائية أن يفصل طفل صغير السن عن أمه ، ومن واجب المجتمع والسلطات العامة أن تشمل بالرعاية الخاصة الأطفال الذين لا أسرة لهم ، والأطفال الذين لا يملكون موارد كافية للمعيشة ، ومن المرغوب فيه أن تنفق الدولة وتبذل المعونات اللازمة لإعالة الأطفال فى الأسر العديدة الأفراد .

٧ – من حق الطفل أن يتلقى تعليمًا مجانيًا وإجباريًا ، على الاقل فى المراحل الأولى . ويجب أن يعطى تعليمًا يرقى بثقافته العامة ، ويساعده على أساس من الفرص المتكافئة أن ينمى قدراته ومداركه وإحساسه بالمسئولية

الأدبية والاجتماعية ، ويصبح عضوًا نافعًا فى المجتمع .

ويجب أن يستهدف المسئولون عن تعليم الطفل وإرشاده تحقيق أفضل مصالح الطفل وتقع هذه المسئولية أولا وقبل كل شيء على كاهل أبويه .

ويجب أن يتاح للطفل الفرصة الكاملة للعب والتسلية اللذين يجب أن يوجها إلى نفس الأغراض التى يتبناها التعليم ، وعلى المجتمع والسلطات العامة أن تعمل جاهدة على تعزيز تمتع الطفل بهذا الحق .

٨ – يجب أن يكون الطفل فى جميع الظروف أول من يتلقى الحماية والمعونة .

٩ – يجب حماية الطفل من كل أشكال الإهمال والقسوة والاستغلال ، ولا يجوز أن يكون موضوعًا للمتاجرة بأى شكل من أشكالها ، ولايجوز السماح بتشغيله قبل أن يبلغ حدا أدنى من العمر ، ولا يجوز بأية حال حمله والسماح له بأن يتولى عملاً أو وظيفة تضر بصحته أو تعليمه ، أو تعيق نموه الجسمى أو العقلى أو الخلقى .

١٠ – يجب حماية الطفل من ممارسة الأعمال التى من شأنها أن تعزز التمييز العنصرى أو الدينى أو سائر أنواع

التمييز ، ويجب أن يربى بروح التفاهم والتسامح والصداقة بين الناس ، والسلام ، والأخوة الشاملة والإدراك التام بأن يكرس طاقته ومواهبه لخدمة أقرانه .

أقر الإعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٠ من نوفمبر ١٩٥٩ ، واستنسخه لرسالة اليونسكو دافيد برابين ، الذى يبلغ من العمر سبع سنوات.

* * *